

الامتنان على بني إسرائيل ومسألة الشفاعة

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

البقرة: ٤٧-٤٨

أما تفسيرها بحسب:

* ابن كثير:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِيهَا﴾ البقرة: ٤٧
يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وأنزل الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الدخان: ٣٢ ، وقال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠ ، وقال رسول الله (ص): ((أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله)).

والأحاديث في هذه كثيرة، وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه الرازي وفيه نظر. وقيل: فضلوا على سائر الأمم لاشتغال أمتهم على الأنبياء منهم وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم، ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو

أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة (صلوات الله وسلامه عليه).
﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَأَتَقُوا﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام: ١٦٤، وقال: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ عبس: ٢٧، وقال: ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لقمان: ٣٣ فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يعني من الكافرين كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ المدثر: ٤٨، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ الشعراء: ١٠٠ - ١٠١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ أَلَّا تُرْبَ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ﴾ آل عمران: ٩١، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٣٦، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ الأنعام: ٧٠، وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الحديد: ١٥ الآية. فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب، ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾. قال ابن عباس ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل والبدل الفدية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم

وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال: ﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ الطارق: ١٠ أي: أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعاة ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ﴿ الفجر: ٢٥ - ٢٦ ، وقال: ﴿مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ ﴿ (٢٦) الصافات: ٢٥ - ٢٦ ، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾ الأحقاف: ٢٨ الآية. وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالחסنة أضعافها. وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ ﴿ الصافات: ٢٤ - ٢٦ .

* الشيخ مغنية:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿ البقرة: ٤٧-٤٨

اللغة:

لا يكون التفاضل إلا بين طرفين، وترجيح أحدهما على الآخر في الخير ومعنى الوقاية: الصيانة والحذر والمراد بها في كلام الله الخوف منه ومعنى الجزاء المكافأة، والمراد بها في الآية الكفاية والاستغناء، والشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر، وقد أريد بها هنا الوسيلة إلى الله، والعدل بالفتح ضد الجور،

والمراد به هنا الفدية، أما العدل بكسر العين فمعناه المساوي.

الإعراب:

يوماً قائم مقام المفعول به بعد حذفه، أي اتقوا عذاب يوم أو شر يوم. وشيئاً أيضاً مفعول به، وقيل يجوز جعله مفعولاً مطلقاً، لأن معنى الجزاء هنا الجزاء.

المعنى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نَعَمَى﴾: هذه الآية تأكيد للآية السابقة، وتمهيد لما يأتي بعدها من الآيات. وأما قوله: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧، أي فضلهم الله على شعوب ذلك العصر واللام في العالمين للعموم العرفي، لا للعموم الحقيقي ويكفي في صحة التفضيل أن تكون لهم الأفضلية من جهة واحدة، لا من جميع الجهات، وهذه الجهة التي امتاز بها بنو إسرائيل أن الله أرسل منهم العديد من الأنبياء والرسل ومهما يكن، فإن تفضيلهم على أهل زمانهم من وجه لا يدل على فضلهم وتفضيلهم على أهل ذاك الزمان من كل وجه، ولا على أن كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم بل إن تضخم عدد الأنبياء فيهم ومنهم حجة عليهم لا لهم، لأنه يدل على أنهم كانوا لشدة ضلالتهم في أمس الحاجة إلى كثرة التحذير والإنذار.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ أي أن كل إنسان وما عمل، فلا ظاهر ولا باطن ولا تعاون ولا تعاطف فالشأن في يوم القيامة، تماماً كالموت لا تجدي معه واسطة من أي كان، ولا تنفع فدية وإن غلت ولا تمنع قوة مهما عظمت لا شيء على الإطلاق إلا رحمة الله.

قال تعالى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقال أيضاً ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَأَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: ١٤٩.

* سيد قطب:

﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ٤٧﴾ وَأَتَقُوا
يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿البقرة: ٤٧-٤٨﴾

وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلاصهم واختيارهم،
فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم، وجدوا نعمة الله عليهم،
وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب
والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد.

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، وهو تذكير لهم بما كان لهم من
فضل الله وعهده، إطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة
الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان وإلى عهد الله شكراً على تفضيله لآبائهم
ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون.

ومع الإطماع في الفضل والنعمة، التحذير من اليوم الذي يأتي وصف
﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

فالتبعية فردية والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني
نفس عن نفس شيئاً... وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم. مبدأ التبعية الفردية
القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله وهو
أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته والتي تتجيش اليقظة الدائمة في
ضميره وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى
رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا
عَدْلٌ﴾. فلا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيماناً وعملاً صالحاً، ولا فدية تؤخذ
منه للتجاوز عن كفره ومعصيته. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فما من ناصر يعصمهم
من الله وينجيهم من عذابه.. وقد عبر هنا بالجمع باعتبار مجموع النفوس
التي لا تجزى نفس منها عن نفس، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل،

وانصرف عن الخطاب في أول الآية إلى صيغة الغيبة في آخرها للتعميم فهذا مبدأ كلي ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين. بعدئذ يمضي يعدد آلاء الله عليهم، وكيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق، وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم.

* السيد فضل الله:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٧-٤٨

إنها الدعوة إلى التذكير الواعي المنطلق من دراسة الماضي الحاضر، في واقع النعمة بجميع أشكالها وألوانها وأوضاعها التي جعلت حياتهم مُنفتحة على الخير، في كل شؤونهم، وعلى الرفعة الاجتماعية في كل مظاهرها ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ولا تغفلوا عنها كما يعيش الناس الغفلة في الواقع من خلال استغراقهم فيه، لتتعرفوا من خلال ذلك الامتيازات الحياتية التي منحكم الله إياها.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧ بالنعمة التي قد تتحول إلى تفضيل بالقيمة. إذا أخذتم بأسباب الاستقامة في خط الله على أساس التقوى.

ويظهر من هذه الآية أن التفضيل ليس تفضلاً طبقياً يمنحهم القيمة الذاتية التي يشعرون معها بالعلو على الناس، بل هو تفضيل النعمة بما أغدقه الله عليهم من الطافه وفيوضاته، ممّا يستوجب الشكر والطاعة والتقوى. أمّا الآية الثانية فتمثل الدعوة إلى التقوى والخوف من اليوم الآخر الذي يقف فيشكل إنسان إمام عمله ومسؤولياته، ليوافقه مصيره بعيداً عن كل الامتيازات الطبقية والعائلية.

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ أي حاسماً في مسألة المصير وهو يوم القيامة الذي يواجه فيه الناس حساب المسؤولية عما قاموا به في الدنيا، بعيداً عن كل الذاتيات الشخصية والعلاقات الاجتماعية، ﴿لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ البقرة: ٤٨ لأن القضية لا تتصل بأية علاقة شخصية في امتيازاتهم الطبقية، مما كان الناس يتعاملون به في سلوكهم العام والخاص.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾: يظهر من هذه الآية أنها لا تعترف بوجود الشفاعة وتأثيرها في يوم القيامة، ولا ينسجم هذا مع الفكرة الإسلامية المعروفة الثابتة في بعض الآيات الأخرى التي تتحدث عن إمكانات الشفاعة ضمن شروط معينة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨ ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه: ١٠٩ أو كما ورد في الأحاديث المأثورة عن النبي (ص) قوله: «ادخرت شفاعةي لأهل الكبائر من أمتي».

... وأيضاً في الروايات مرفوعاً إلى النبي (ص) أنه قال: «إني أشفع، يوم القيامة، فأشفع، ويشفع عليّ فيشفع ويشفع أهل بيتي فيشفعون، وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في أربعين من إخوانه، كل قد استوجب النار». لكن يرى (السيد فضل الله) أن هذه الآية لا تواجه القضية من حيث المبدأ، بل تواجهها من ناحية رفض الذهنية البشرية في الدنيا التي يواجه بها الإنسان قضية المصير في الآخرة، من خلال العلاقات الذاتية والتمنيات الشخصية في محاولة التخلص من نتائج المسؤولية، تماماً كما هي الحال في قضايا الناس بعضهم مع بعض.

أما قضية الشفاعة كمبدأ، فإنها تبتعد عن هذا الجو، لتدخل في جو آخر، حيث نلمح في القرآن والسنة التأكيد على وجود قواعد أساسية تحكمها من حيث طبيعة الأشخاص والمواقع والقضايا مما يجعلها لا ترتبط بالعلاقات الذاتية التي تتبع الحب الذاتي، حيث يحاولون التقرب إلى الأنبياء والأولياء

بالمبادرات الذاتية من النذور وغيرها، كما يتقربون إلى الأنبياء والأولياء بالمبادرات الذاتية من النذور وغيرها من أجل الوصول إلى الشفاعة، مع فارق واحد هو الشعور بالقداسة في عالم الأولياء والأنبياء.

ولكن هذا لا يمنع أن يطلب الناس الشفاعة من الأنبياء والأولياء من موقع الطلب إلى الله بأن يجعلهم شُفعاء لهم، لقربهم من الله الذي منحهم الكرامة وأراد أن يظهر ذلك ولا يلتقي هذا الاتجاه بمعنى الوساطة التي تقف لتربط بين الله وبين عباده على أساس الفكرة التي تقول: إننا لا نقف في المستوى الذي يؤهلنا للاتصال بالله مباشرة لبُعدنا عن ساحة قرب وقدس، فنحاول أن نتوسط لذلك بالاتصال بهم مباشرة ليصلونا بالله في نهاية المطاف.

إننا نتحفظ حول هذه الفكرة من موقع الأسلوب القرآني الذي يخاطب الناس بشكل مباشر ويدعوهم إلى الاتصال بالله من دون وساطة أحد كما في الآيات والتي توحى للإنسان بأن الله قريب إلى الناس: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿ق: ١٦

أما الأحاديث التي تتحدث عن الأنبياء أو الأوصياء بأنهم وسطاء بين الله وبين خلقه، فالظاهر أن المقصود بها الوساطة في حمل الرسالة وتبليغها إليهم من الله لا الوساطة في الاتصال به.

- ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وهو البذل الذي يقوم مقام المذنب من تحمل العقوبة، كما هي الحال في الدنيا، إذ قد يقدم الإنسان شخصاً آخر بدلاً عنه في مواجهته نتائج المسؤولية بحيث ينجو من آثارها الصعبة: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من قبل أنصارهم وأصحابهم وأقربائهم، لأنهم لا يملكون شيئاً أمام الله.

أما ما نستوحيه من جو الآية، فهو الإيحاء بأن على الإنسان أن يتحرك في حياته من موقع التفكير بأن خلاصة لا يرتبط بأي شيء مما تعارف عليه الناس من أساليب اللف والدوران من المصانعات والمجاملات والتسويات، بل

يرتبط بالخط العملي الذي يتحرك في حدود الشعور بالمسؤولية العملية، في التصور الإنساني للموقف الحاسم في يوم القيامة الذي يقف فيه الإنسان ليووجه مصيره من خلال عمله فلا شيء إلا العمل مع رحمة الله، مما يدعونا إلى التركيز في خطوات الحياة على أساس الخط العملي المستقيم، وعلى الرجوع الخاشع إلى الله، والارتباط الوثيق به في صفاء العقيدة وحيويتها.

*الطبري:

﴿يَبَيِّنْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِيهَا﴾ البقرة: ٤٧
وتأويل ذلك في هذه الآية نظير تأويله في التي قبلها في قوله: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾. وقد ذكرته هنالك.
﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧

وهذا أيضا مما ذكرهم جل ثناؤه من آلائه ونعمه عندهم. ويعني بقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧: أني فضلت أسلافكم، فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء نعماً عند الأبناء، لكون الأبناء من الآباء، وأخرج جل ذكره قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧ مخرج العموم، وهو يريد به خصوصاً، لأن المعنى: وإني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨

وتأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً. وجائز أيضاً أن يكون تأويله: واتقوا يوماً لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً.

وأما المعنى في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ فإنه تحذير

من الله تعالى ذكره عباده الذين خاطبهم بهذه الآية عقوبته أن تحل بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

وأما تأويل قوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ فإنه يعني: لا تُغني.

حدثنا عبد العزيز الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص): «لا يموتن أحدكم وعليه دين، فإنه ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يقتسمون هنالك الحسنات والسيئات» وأشار رسول الله (ص) بيده يميناً وشمالاً.

قال أبو جعفر: فذلك معنى قوله جل ثناؤه: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ يعني أنها لا تقضي عنها شيئاً لزمها لغيرها؛ لأن القضاء هنالك من الحسنات والسيئات على ما وصفنا.

﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾

و«الشفاعة» مصدر من قول الرجل: «شفع لي فلان إلى فلان شفاعاً» وهو طلبه إليه في قضاء حاجته. وإنما قيل للشفيع «شفيع وشافع» لأنه ثنى المستشفع به، فصار به شفعاً فكان ذو الحاجة قبل استشفاعه به في حاجته فرداً، فصار صاحبه له فيها شافعاً، وطلبه فيه وفي حاجته شفاعاً. ولذلك سمي الشفيع في الدار وفي الأرض «شفيعاً» لمصير البائع به شفعاً.

فتأويل الآية إذاً: واتقوا يوماً لا تقضي نفس عن نفس حقاً لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعاً شافع، فيترك لها ما لزمها من حق. وقيل: إن الله عز وجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها، لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آبائنا. فأخبرهم الله جل وعز أن نفساً لا تجزي عن نفس شيئاً في القيامة، ولا يقبل منها شفاعاً أحد فيها حتى يستوفى لكل ذي حق منها حقه.

عن شعبة، عن العوام بن مَرَجَم رجل من قيس بن ثعلبة، عن أبي عثمان النهدي، عن عثمان بن عفان: أن رسول الله (ص) قال: إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة، كما قال الله عز وجل ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء: ٤٧).

فآيسهم الله جل ذكره مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق وخلافهم أمر الله في اتباع محمد (ص) وما جاءهم به من عنده بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم؛ وأخبرهم أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم، وجعل ما سنّ فيهم من ذلك إماماً لكل من كان على مثل منهاجهم لئلا يطمع ذو إلحاد في رحمة الله.

وهذه الآية وإن كان مخرجها عاماً في التلاوة، فإن المراد بها خاص في التأويل لتظاهر الأخبار عن رسول الله (ص) أنه قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وأنه قال: «ليس من نبي إلا وقد أعطي دعوة، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يُشرك بالله شيئاً». فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد (ص) لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينهم وبينه وأن قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله عز وجل. وليس هذا من مواضع الإطالة في القول في الشفاعة والوعد والوعيد، فنستقصي الحجج في ذلك، وسنأتي على ما فيه الكفاية في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾

و«العدل» في كلام العرب بفتح العين: الفدية.

وإنما قيل للفدية من الشيء والبدل منه «عدل»، لمعادلته إياه وهو من غير جنسه، ومصيره له مثلاً من وجه الجزاء، لا من وجه المشابهة في الصورة والخلقة، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ (الأنعام: ٧٠).

بمعنى: وإن تفد كل فدية لا يؤخذ منها يقال منه: «هذا عدله وعديله».

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصرء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها. وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿الصفات: ٢٤ - ٢٦ وكان ابن عباس يقول في معنى: ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾، ما:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ما لكم لا تمانعون منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم. وقد قال بعضهم في معنى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾: وليس لهم من الله يومئذ نصير ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم. وقد قيل: ولا هم ينصرون بالطلب فيهم والشفاعة والفدية.

والقول الأول أولى بتأويل الآية لما وصفنا من أن الله جل ثناؤه إنما أعلم المخاطبين بهذه الآية أن يوم القيامة يوم لا فدية لمن استحق من خلقه عقوبته، ولا شفاعاة فيه، ولا ناصر له. وذلك أن ذلك قد كان لهم في الدنيا، فأخبر أن ذلك يوم القيامة معدوم لا سبيل لهم إليه.

* الطبرسي:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧

المعنى: قد مضى تفسير أول الآية فيما تقدم وقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧ قال ابن عباس: أراد به عالمي أهل زمانهم، لأن أمتنا أفضل الأمم بالإجماع، كما أن نبينا، عليه أفضل الصلاة والسلام، أفضل الأنبياء، وبديل قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠. وقيل: المراد به تفضيلهم في

أشياء مخصوصة، وهي: إنزال المن والسلوى، وما أرسل الله فيهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب، إلى غير ذلك من النعم العظيمة، من تغريق فرعون، والآيات الكثيرة التي يخفّ معها الاستدلال، ويسهل بها الميثاق، وتفضيل الله إياهم في أشياء مخصوصة لا يوجب أن يكونوا أفضل الناس على الإطلاق، كما يقال: حاتم أفضل الناس في السخاء ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ فإن قيل: فما الفائدة في تكرار قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؟ قلنا: لأنه لما كانت نعم الله هي الأصل فيما يجب شكر احتيج إلى تأكيدها، كما يقول القائل اذهب اذهب، عجل عجل، وقوله أيضاً: إن التذكير الأول ورد مجملًا، والثاني ورد مفصلاً. وقيل: إنه الأول ذكرهم نعمه على أنفسهم، وفي الثاني ذكرهم نعمه على آبائهم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨

المعنى: لما بين سبحانه نعمه العظام عليهم، أنذرهم في كفرانها بيوم القيامة، فقال: ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي احذروا، واخشوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ أي لا تغني، أو لا تقضي فيه ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، ولا تدفع عنها منكروها. وقيل: لا يؤدي أحد عن أحد حقًا، وجب عليه لله، أو لغيره، وإنما نكر النفس ليبين أن كل نفس، فهذا حكمها. وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لقمان: ٣٣.

وقوله: ﴿شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء، وآباؤنا يشفعون لنا. فأياهم الله عن ذلك، فخرج الكلام مخرج العموم، والمراد به الخصوص. ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي (ص) شفاعة مقبولة، وإن اختلفوا في كيفيتها.

فعندنا هي مختصة بدفع المضار، وإسقاط العقاب عن مستحقه من مذبني المؤمنين. وقالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون المعاصين، وهي ثابتة عندنا للنبي (ص)، ولأصحابه المنتجبين، والأئمة من أهل بيته الطاهرين، ولصالحى المؤمنين، وينجي الله تعالى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين.

ويؤيده الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول، وهو قوله: ((ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)). وما جاء في روايات أصحابنا، مرفوعاً إلى النبي (ص) أنه قال: ((إني أشفع يوم القيامة فأشفع، ويشفع عليّ فيشفع، ويشفع أهل بيتي فيشفعون. وإن أدنى المؤمنين شفاعاً، ليشفع في أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار)). وقوله تعالى مخبراً عن الكفار عند حسراتهم على الفاتت لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعاة: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿الشعراء: ١٠٠ - ١٠١﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية وإنما سمي الفداء عدلاً، لأنه يعادل المفدى ويمائله، وهو قول ابن عباس، ومعناه: لا يؤخذ من أحد فداء يكفر عن ذنوبه. وقيل: لا يؤخذ منه بدل بذنوبه. وأما ما جاء في الحديث: ((لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً)) فاختلف في معناه، قال الحسن: الصرف العمل، والعدل الفدية. وقال الأصمعي: الصرف التطوع، والعدل الفريضة. وقال أبو عبيدة: الصرف الحيلة، والعدل الفدية. وقال الكلبي: الصرف الفدية، والعدل رجل مكانه. وقوله: ﴿عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: لا يعاونون حتى ينجوا من العذاب. وقيل: ليس لهم ناصر ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم.

*القرطبي:

قوله تعالى: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نَعْمَى أَلَيْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

فِيهَا﴾ البقرة: ٤٧

قد تقدم الكلام حول معنى النعم التي أنعمها على بني إسرائيل وأما قوله

تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧ يريد على عالمي زمانهم، وأهل كل زمان، عالم وقيل: على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨

فيه مسائل: الأولى - قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أمر معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام في التقوى.

﴿يَوْمًا﴾: يريد عذابه وهوله، وهو يوم القيامة، وانتصب على المفعول باتقوا، ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزي، على الإضافة. قال البصريون: التقدير، يوماً لا تجزي فيه فيه نفس عن نفس شيئاً ثم حذف «فيه» وقال الكسائي هذا خطأ لا يجوز حذف «فيه» ولكن التقدير: واتقوا يوماً لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء. وإنما يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها. وقال الفراء: يجوز أن تحذف الهاء وفيه. وحكى المهدوي أن الوجهين جائز إن عند سيبويه والأخفش والزجاج ومعنى ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ البقرة: ٤٨

أي لا تأخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئاً، تقول جزي عني هذا الأمر يجزي؛ كما تقول قضى عني. واجتزأت بالشيء اجتزأً إذا اكتفيت به وقرأ تجزي بضم التاء والهمز ويقال: جزي وأجزي بمعنى واحد وقد فرق بينهما قوم فقالوا جزي بمعنى قضى وكافاً وأجزي بمعنى أغنى وكفى. أجزأني الشيء يجزئني كفاني.

الثانية: قوله تعالى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الإثنان تقول: كان وتراً فشفعته شفعاً، والشفعة منه لأنك تضم ملك شريك إلى ملكك. والشفيع صاحب الشفعة وصاحب الشفاعة. وناقفة شافع إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها؛ نقول منه شفعت الناقفة شفعاً، واستشفعته إلى

فلان أي سألته أن يشفع لي إليه.

وتشفعت إليه في فلان فشفعني فيه؛ فالشفاعة إذا ضم غيرك إلى جاهل ووسيلتك؛ فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع، وإيصال منفعته للمشفوع. والثالثة: مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين وقد تمسك القاضي عليهم في الرد بشيئين: أحدهما: الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى. والثاني: الإجماع من السلف على تلقي هذه الأخبار بالقبول فظهور رواياتها وإطباقهم على صحتها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق فإن قالوا قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار؛ مثل قوله ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ غافر: ١٨. قالوا وأصحاب الكبائر ظالمون، وقال ولا يقبل منها شفاعة. قلنا ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم لا صيغة له؛ فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءاً وكل نفس، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك وأيضاً فإنه تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال في صفة الكافرين ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ المدثر: ٤٨ وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨. وقال ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ: ٢٣. فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين وقد أجمع المفسرون أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ البقرة: ٤٨.

النفس الكافرة لا كل نفس. فإن قالوا جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبي (ص) فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم. قلنا: إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله في أن تناله؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه؛ بل كل واحد معترف على

نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة فإن قالوا قد قال تعالى:
﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨). والفاسق غير مرتضى قلنا لم يقل لمن
لا يرضى، وإنما قال «لمن ارتضى» ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون؛
لقوله تعالى ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (مريم: ٨٧)
وقيل للنبي (ص): ما عهد الله مع خلقه؟ قال: أن يؤمنوا ولا يشركوا به
شيئاً. وقال المفسرون إلا من قال لا إله إلا الله. الرابعة: قوله تعالى ولا يقبل.
قرأ ابن كثير وابن عمرو، تقبل بالتاء، لأن الشفاعة مؤنثة وقرأ الباقون بالياء
على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع وقال الأخفش: حسن التذكير، لأنك قد فرقت؛
الخامسة: قوله تعالى: ولا يؤخذ منها عدل.

أي فداء والعدل بفتح العين: الفداء ويكبرها: المثل، يقال: عدل وعديل
للذي يماثلك في الوزن والقدر ويقال عدل الشيء هو الذي يساويه قيمة وقدرًا
وإن لم يكن من جنسه. والعدل بالكسر هو الذي يساوي الشيء من جنسه
وفي جرمه.

قوله تعالى: ولا هم ينصرون.

أي يعانون والنصر: العون والأنصار: الأعوان ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِيَّ
إِلَى اللَّهِ﴾ (الصف: ١٤) أي من يضم نصرته إلى نصرتي وانتصر الرجل: انتقم والنصر:
الإتيان يقال: نصرت أرض بني فلان: أتيتها. والنصر: المطر. يقال نصرت الأرض،
مُطرت. والنصر: العطاء.

وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر؛ لأنها هي المعاني التي
اعتادوها بني آدم في الدنيا، فإن الواقع في الشدة لا يتلخص إلا بأن يشفع له
أو ينصر أو يفتدى.

*الشيرازي:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) وَأَتَّقُوا

يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٧-٤٨﴾ البقرة: ٤٧-٤٨

في هذه الآيات خطاب آخر إلى بني إسرائيل فيه تذكير بنعم الله: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداءً من الهداية والإيمان، وانتهاءً بالنجاة من فرعون ونيل العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهي نعمة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧
لعل البعض تصور أن هذا التفضيل صفة أبدية مستمرة على مرّ العصور. لكن دراسة سائر آيات القرآن تبين أن هذا التفضيل هو تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من أفراد عصرهم ومنطقتهم، لا تفضيلاً مطلقاً. فالقرآن الكريم يخاطب المسلمين في آية أخرى ويقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠.

كما يتحدث القرآن عن وراثة بني إسرائيل للأرض فيقول: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسَـٰضَعُونَ مَشْكَرَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ الأعراف: ١٣٧.
وواضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، والمقصود من الآية مشارق المنطقة التي كانوا يعيشون فيها ومغاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على أفراد منطقتهم.

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التي كانوا يتصورون بموجبها أن الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنهم قادرون على دفع فدية وبدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة في هذه الحياة الدنيا.

القرآن يخاطبهم ويقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨.

الحاكم أو القاضي في تلك المحكمة الإلهية، لا يقبل سوى العمل الصالح،

كما تقول الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

الشعراء: ٨٨ - ٨٩ .

إنَّ الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير في الواقع إلى ما يجري من محاولات في هذه الحياة الدنيا لانقاذ المذنب من العقاب.

ففي الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لانقاذه من العقاب، أما في الآخرة فإنه: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ البقرة: ٤٨.

وربما يلجأ المذنب في هذه الحياة إلى الشفعاء لينقذوه مما ينتظره من الجزاء، ويوم القيامة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾.

وإذا لم توجد الشفاعة، يتقدم الإنسان في الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهو بدل الشيء من جنسه، أما في الآخرة فـ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

وإذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه ويخلصوه من الجزاء، وفي الآخرة لا يقوم بنجاتهم أحد ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

القرآن الكريم يؤكد أنَّ الأصول الحاكمة على قوانين الجزاء يوم القيامة تختلف كلياً عما هو السائد في هذه الحياة، فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هو الإيمان والتقوى والاستعانة بلطف الباري تعالى.

القرآن ومسألة الشفاعة:

العقاب الإلهي في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا ينزل بساحة الإنسان دون شك من أجل الانتقام. بل إن العقوبات الإلهية تشكل عنصر الضمان في تنفيذ القوانين، وتؤدي في النتيجة إلى تقدم الإنسان وتكامله. من هنا يجب الاحتراز عن أي شيء يضعف من قوة عنصر الضمان هذا، كي لا تنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب.

من جهة أخرى، لا يجوز غلق باب العودة والإصلاح بشكل كامل في وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم وللمعودة إلى الله وإلى الطهر

والتقوى.

((الشفاعة)) بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، وبمعناها الخاطئ تشجع على ارتكاب الذنوب.

أولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخطيء لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التي تقدم إلى السلاطين والحكام الظالمين.

وثمة مجموعة كالوهابيين استندوا إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ فأذكروا الشفاعة تماماً، دون الالتفات إلى سائر الآيات في هذا المجال.

المفهوم الحقيقي للشفاعة:

كلمة ((الشفاعة)) من ((الشفع)) بمعنى ((الزوج)) و((ضم الشيء إلى مثله))، يقابلها ((الوتر)) بمعنى ((الفرد)). ثم أطلقت على انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، ولها في العرف والشرع معنيان متباينان كل التباين:

أ - إنَّ الشفاعة لدى السواد تعني أن الشفيع يستفيد من مكانته وشخصيته ونفوذه، لتغيير رأي صاحب قدرة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته. والشفيع قد يرعب صاحب القدرة هذا، أو قد يستعطفه، أو قد يغير أفكاره بشأن ذنب المجرم واستحقاقه للعقاب ... وأمثال هذه الأساليب.

الشفاعة بهذا المعنى هي -- بعبارة موجزة -- لا تعني حدوث أي تغيير في المحتوى النفسي والفكري للمجرم أو المتهم. بل إن كل التغييرات والتحويلات تتوجه نحو الشخص الذي تقدم إليه الشفاعة.

هذا اللون من الشفاعة ليست له مكانة في المفهوم الديني على الإطلاق؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخطأ حتى يتوسط الشفيع في تغيير رأيه، ولا

يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الإنسان كي يمكن إثارة عواطفه، ولا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع لأوامره، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور غير محور العدالة.

ب - المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف ((المشفوع له))، أي: أن الشخص المشفوع له يوفر في نفسه الظروف والشروط التي تؤهله للخروج من وضعه السيء الموجب للعقاب، وينتقل عن طريق الشفيع إلى وضع مطلوب حسن يستحق معه العفو والسماح. والإيمان بهذا النوع من الشفاعة يربّي الإنسان، ويصلح الأفراد المذنبين، ويبعث فيهم الصحة واليقظة. والشفاعة في الإسلام لها هذا المفهوم السامي.

وسنرى أن كل الاعتراضات والانتقادات والحملات التي توجه إلى مسألة الشفاعة، إنما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الأولي المنحرف، ولا تلتفت إلى المعنى الثاني المنطقي المعقول البناء.

الشفاعة في عالم التكوين:

التفسير الصحيح والمنطقي للشفاعة -- بالمفهوم الذي مرّ بنا -- له مصاديق كثيرة في عالم التكوين والخلقة، (إضافة إلى عالم التشريع). الطاقات الأقوى في هذا العالم تنضم إلى الأضعف منها لتسيّرها نحو أهداف بناءة. الشمس تشرق والأمطار تتساقط، لتفجّر القوّة الكامنة في البذرة لتحركها نحو الإنبات، ونحو شقّ جسم التربة والخروج إلى الفضاء الذي استمدت البذرة منه طاقات النمو والتكامل.

هذه الظواهر هي في الحقيقة شفاعة تكوينية على صعيد قيامة الحياة الدنيا. ولو انطلقنا من هذه النماذج الكونية في الشفاعة لفهم الشفاعة على صعيد التشريع، لابتعدنا عن الإنحراف، وسنوضح ذلك قريباً.

والقرآن الكريم تحدث في ثلاثين موضعاً عن مسألة ((الشفاعة)) (بهذا

اللفظ)، وهناك إشارات أخرى إلى هذه المسألة دون ذكر لفظها.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة في القرآن إلى المجموعات التالية.
المجموعة الأولى: آيات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ البقرة: ٢٥٤، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ﴾ البقرة: ٤٨ .

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتصورة لانقاذ المجرمين غير الإيمان والعمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادي، أو طريق الصداقة والخلة، أو طريق الشفاعة.

ويقول تعالى بشأن بعض المجرمين: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ المدثر: ٤٨ .
المجموعة الثانية: آيات تحصر الشفاعة بالله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ السجدة: ٤ و﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا﴾ الزمر: ٤٤ .
المجموعة الثالثة: آيات تجعل الشفاعة متوقفة على إذن الله تعالى كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢٥٥، وقوله: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ: ٢٣ .

المجموعة الرابعة: آيات تبين شروطاً خاصة للمشفوع له. هذه الشروط تتمثل أحياناً في رضا الله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨ .
وإستناداً إلى هذه الآية، شفاعة الشفعاء تشمل فقط أولئك الذين بلغوا مرتبة ((الإرتضاء)) أي: القبول لدى الله سبحانه وتعالى.

ويتمثل الشرط أحياناً بالعهد عند الله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ مريم: ٨٧، والمقصود من هذا العهد الإيمان بالله ورسوله.
ويتحدث القرآن عن سلب صلاحية الإستشفاع عن بعض الأفراد مثل المجرمين، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ غافر: ١٨ .
مما تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الإلهي، والوصول إلى منزلة نيل رضا الله، واجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

الشفاعة فيه الحديث:

في الروايات الإسلامية تعابير كثيرة تكمل محتوى الآيات المذكورة وتوضح ما خفي منها، من ذلك:

١ - في تفسير ((البرهان)) عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) عن علي بن أبي طالب (ع) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: ((شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي ...)) راوي الحديث ابن أبي عمير يقول: فَقُلْتُ لَهُ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ كَيْفَ تَكُونُ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨) وَمَنْ يَرْتَكِبُ الْكِبَائِرَ لَا يَكُونُ مُرْتَضَى بِهِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا أَحْمَدَ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَرْتَكِبُ ذَنْبًا إِلَّا سَاءَهُ ذَلِكَ وَنَدِمَ عَلَيْهِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ (ص) كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً ... وَمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَمْ تَجِبْ لَهُ الشَّفَاعَةُ وَكَانَ ظَالِمًا وَاللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ يَقُولُ ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨).
صدر الحديث يتضمن أن الشفاعة تشمل مرتكبي الكبائر. لكن ذيل الحديث يوضح أن الشرط الأساسي في قبول الشفاعة هو الإيمان الذي يدفع المجرم إلى مرحلة الندم وجبران ما فات، ويبعده عن الظلم والطغيان والعصيان. (تأمل بدقة).

٢ - في كتاب ((الكافي)) عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في رسالة كتبها إلى أصحابه قال: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَطْلُبْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ)).

يتبين من سياق الرواية، أن كلام الإمام يستهدف إصلاح الخطأ الذي وقع فيه بعض أصحاب الإمام في فهم مسألة الشفاعة: ويرفض بصراحة مفهوم الشفاعة الخاطيء المشجع على ارتكاب الذنوب.

٣ - وعن الصادق (ع) أيضاً: ((إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَعَثَ اللَّهُ الْعَالَمَ وَالْعَابِدَ، فَإِذَا وَقَفَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قِيلَ لِلْعَابِدِ: إِنِطْلِقْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَقِيلَ لِلْعَالِمِ:

قَفْ تَشْفَعُ لِلنَّاسِ بِحُسْنِ تَأْدِيبِكَ لَهُمْ)).

في هذا الحديث نجد إرتباطاً بين ((تأديب العالم)) و ((شفاعته لمن أدبهم)) وهذا الإرتباط يوضح كثيراً من المسائل المبهمة في بحثنا هذا. أضف إلى ما سبق أن في اختصاص الشفاعة بالعالم وسلبها من العابد، دلالة أخرى على أن الشفاعة في المفهوم الإسلامي ليست معاملةً وعقداً وتلاعباً بالموازين، بل مدرسة للتربية، وتجسيد لما مرَّ به الفرد من مراحل تربوية في هذا العالم.

وعن النووي الشافعي في شرحه لصحيح مسلم، نقل عن القاضي عياض -- وهو من كبار علماء أهل السنة، -- أن أحاديث الشفاعة متواترة. وابن تيمية (المتوفى ٧٢٨ هـ) ومحمد بن عبد الوهَّاب (المتوفى ١٢٠٦ هـ)، مع ما لهما من تعصُّب ولجاج في مثل هذه الأمور، يقرَّان بتواتر هذه الروايات.

وثمة كتاب دراسي معروف و متداول بين ((الوهَّابية)) هو ((فتح المجيد)) للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ينقل عن ((ابن القيم)) ما يلي:
((الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي (ص) وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكروها وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال)).
اختلف علماء العقائد المسلمون في كيفية التأثير المعنوي للشفاعة. فقال جمع يسمون ((الوعيدية))، وهم المؤمنون بخلود مرتكبي الكبائر في جنة: إن الشفاعة ليس لها أثر على إزالة آثار الذنوب، بل تأثيرها يقتصر على زيادة الثواب وعلى التكامل المعنوي.

و((التفضيلية)) وهم من يعتقد بعدم خلود مرتكبي الكبائر في جهنم، فيذهبون إلى أن الشفاعة تشمل المذنبين، وتؤثر في إسقاط العقاب عنهم. أما ((الخواجة نصير الدين الطوسي)) فيؤيد كلا الأمرين في كتابه ((تجريد

(الاعتقاد)) ويرى وجود كلا الأثرين للشفاعة.

((العلامة الحلي« شرح عبارة الطوسي في كتابه ((كشف المراد)) ولم يردّ عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار ما مرّ بنا بشأن معنى الشفاعة لغوياً ومقارنتها بالشفاعة التكوينية، لما ترددنا في صحة ما ذهب إليه المحقق الطوسي. فمن جهة، ثمة رواية معروفة عن الإمام الصادق(ع) هي: ((مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ(ص) يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). وإستناداً إلى هذه الرواية، يحتاج إلى الشفاعة كل الناس، حتى التائبون المغفور لهم، وفي مثل هذه الحالة لابد أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين، في الحطّ من الذنوب، وفي علوّ المنزلة.

أما الروايات التي تذهب إلى عدم حاجة الصالحين للشفاعة فهي تنفي ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين والمذنبين.

فلسفة الشّفاعَة:

مرّ بنا في ما سبق ((مفهوم)) الشّفاعَة و((أسانيدها))، ونستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفة الشفاعة على الصعيد الاجتماعي والنفسي. وبشكل عام وإنطلاقاً من مفهوم الشفاعة نستطيع أن نتلمس الآثار التالية في المؤمنين بالشفاعة.

((مكافحة روح اليأس)) من أهم آثار الشفاعة في نفس المعتقدين بها. مرتكبو الجرائم الكبيرة يعانون من وخز الضمير، كما يشعرون بياس من عفو الله، ولذلك لا يفكرون بالعودة ولا بإعادة النظر في طريقة حياتهم الآثمة. وقد يدفعهم المستقبل المظلم إلى التعنت والطغيان، وإلى التحلل من كل قيد تماماً، كالمريض اليأس من الشفاء الذي يتحلل من أي نظام غذائي، لإعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

الإيمان بالشفاعة يفتح أمام الإنسان نافذة نحو النور، ويبعث فيه الأمل بالعفو والصفح، وهذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، يعيد النظر في مسيرة حياته، بل ويشجعه على تلافي سيئات الماضي. والإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسي والروحي للمذنب، ويفسح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح.

شروط ((توفّر الشّفاعَة))

الشفاعة بمعناها الصحيح لها قيود وشروط متعددة الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لابدّ أن يسعوا لتوفير شروط الشّفاعَة كي يشملهم عطاؤها، وأن يجتنبوا الذنوب التي تقضي على كل أمل في الشّفاعَة كالظلم، وأن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على أساس تغيير عميق في أنفسهم وأن يتوبوا من الذنب أو يهّموا بالتوبة على الأقل من أجل بلوغ درجة ((الارتضاء)) واتخاذ ((العهد الإلهي)) (بالتفسير المذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفة الأحكام والقوانين الإلهية، أو يقللوا من هذه المخالفة ما أمكنهم، ويعمقوا في أنفسهم الإيمان بالله واليوم الآخر.

الشّفاعَة والتّوحيد:

الفهم الخاطيء لمسألة الشّفاعَة أثار اعتراض فتّتين على ما بينهما من تضاد.

الفئة الأولى: اعترضت على الشّفاعَة من منطلق مادي واعتبرتها عاملاً للتخدير وإماتة روح السّعي والمثابرة، وقد أجبنا على اعتراضات هذه الفئة فيما سبق.

الفئة الأخرى: اعترضت على الشّفاعَة من منطلق السلفية، واعتبرتها شركاً وانحرافاً عن خط التوحيد، ويمثل هذه الفئة ((الوهابيون)) ومن لفّ لفهم.

ومن العجيب أن الوهابيين تبلغ بهم الجرأة في تكفير المسلمين بحيث يبيحون نهب أموال المسلم وسفك دمه بسهولة، وقد فعلوا ذلك في تاريخهم مراراً.

يقول الشيخ ((سليمان بن لحمان)) في كتابه ((الهدية السنية)): ((إنَّ الكتاب والسنة دلاً على أن من جعل الملائكة والأنبياء أو ابن عباس أو أبا طالب أو ... وسائط بينهم وبين الله ليشفعوا لهم عند الله لأجل قربهم إلى الله - كما يفعل عند الملوك - إنه كافر مشرك حلال الدم والمال! وإن قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وصلى و صام))!!! ومع هذا الإفتاء يتضح حال المسلمين في جميع أقطار العالم الإسلامي الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب الله وسنة نبيه (ص). روح البطش والسفك واللجاجة في هؤلاء لا تخفى على أحد، وهكذا جهلهم بالمسائل الإسلامية والقرآنية.

نحن أيضاً نقول: من الشرك أن يطلب الإنسان من أحد شيئاً يختص به الخالق، ومن الشرك أن يتجه الإنسان في ذلك الطلب إلى فرد يعتبره قادراً بشكل مستقل عن تلبية ذلك الطلب. أما إذا طلب الإنسان من أحد شفاعته منحها له الله، فما ذلك بشرك، بل هو عين الإيمان والتوحيد، ويشهد على ذلك كلمة ((مع)) في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [البقرة: ١٨] التي تفيد أن المنهي عنه هو دعوة شخص نعتبه في منزلة الله، ونعتبه مصدراً مستقلاً في التأثير.

هدفنا من التأكيد على هذا الموضوع، هو أن ما اعتراه من مسخ وتحريف وقرّ الفرصة لأعداء الدين كي يطعنوا في المقدسات الدينية، كما أدّى إلى ظهور تفسيرات واستنتاجات خاطئة لدى بعض المجموعات الإسلامية، ممّا جرّ بدوره إلى تفرقة صفوف المسلمين.

والفهم الصحيح للشفاعة يؤدي كما رأينا إلى سموّ أخلاق المجتمع

وتكاملها. وإلى إصلاح الأفراد الفاسدين، كما يؤدي إليه قطع دابر الطعانين، وإلى إحلال الوحدة بين المسلمين.

* الفخر الرازي:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧
اعلم أنه تعالى إنما أعاد هذا الكلام مرة أخرى تأكيداً للحجة عليهم وتحذيراً من ترك اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم قرنه بالوعيد، وهو قوله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ البقرة: ٤٨ كأنه قال: إن لم تطيعوني لأجل سؤالي نعمتي عليكم فأطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل. أما قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧

ففيه سؤال وهو: أنه يلزم أن يكونوا أفضل من محمد (عليه السلام) وذلك باطل بالاتفاق. والجواب عنه المراد فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك، وهو الآن ليس بموجود لم يكن ذلك الشخص من جملة العالمين حال عدمه لأن شرط العالم أن يكون موجوداً والشيء حال عدمه لا يكون موجوداً. فالشيء حال عدمه لا يكون من العالمين، وأن محمداً (عليه السلام) ما كان موجوداً في ذلك الوقت، فما كان ذلك الوقت من العالمين فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت كونهم أفضل من محمد (صلى الله عليه وسلم) في ذلك الوقت، وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة: ٢٠. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الدخان: ٣٢، وأراد به عالمي ذلك الزمان، وإنما كانوا أفضل من غيرهم بما أعطوا من الملك والرسالة والكتب الإلهية، وثالثها: أن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧

عام في العالمين لكنه مطلق في الفضل والمطلق يكفي في صدقه صورة واحدة. فالآية تدل على أن بني إسرائيل فضلوا على العالمين في أمر

ما وهذا لا يقتضي أن يكونوا أفضل من كل العالمين في كل الأمور، بل لعلمهم وإن كانوا أفضل من غيرهم في أمر واحد فغيرهم يكون أفضل منهم فيما عدا ذلك الأمر، وعند ذلك يظهر أنه لا يصح الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٣٣ على أن الأنبياء أفضل من الملائكة. بقي ههنا أبحاث:

البحث الأول: قال ابن زيد: أراد به المؤمنين منهم لأن عصاتهم مسخوا قرده وخنازير على ما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ مِنْهُمْ الْفَرْدَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ المائدة: ٦٠، وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ المائدة: ٧٨.

البحث الثاني: أن جميع ما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل تنبيه للعرب لأن الفضيلة بالنبي قد لحقتهم، وجميع أقاصيص الأنبياء تنبيه وإرشاد. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر: ١٨، وقال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الزمر: ٥٥. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف: ١١١.

البحث الثالث: قال القفال: «النعمة بكسر النون المنة وما ينعم به الرجل على صاحبه. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ الشعراء: ٢٢، وأما النعمة بفتح النون فهو ما يتنعم به في العيش، قال تعالى: ﴿وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ﴾ الدخان: ٢٧.

البحث الرابع: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧ يدل على أن رعاية الأصلح لا تجب على الله تعالى لا في الدنيا ولا في الدين لأن قوله: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧ يتناول جميع نعم الدنيا والدين، فذلك التفضيل إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً لم يجز جعله منة عليهم لأن من أدى واجباً فلا منة له على أحد وإن كان غير واجب مع أنه تعالى خصص البعض بذلك دون البعض، فهذا يدل على أن رعاية الأصلح غير واجبة لا في الدنيا ولا في الدين. فإن قيل: لما خصهم بالنعمة العظيمة في الدنيا، فهذا يناسب أن يخصصهم أيضاً بالنعمة العظيمة في الآخرة كما قيل: إتمام المعروف خير من

ابتدائه، فلم أردف ذلك التخويف الشديد في قوله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ والجواب: لأن المعصية مع عظم النعمة تكون أقبح وأفحش فلهذا حذرهم عنها. ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨

اعلم أن اتقاء اليوم اتقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد لأن نفس اليوم لا يتقى ولا بد من أن يرده أهل الجنة والنار جميعاً. فالمراد ما ذكرناه ثم إنه تعالى وصف اليوم بأشد الصفات وأعظمها تهويلاً، وذلك لأن العرب إذا دفع أحدهم إلى كراهية وحاولت أعوانه دفاع ذلك عنه بذلت ما في نفوسها الأبوية من مقتضى الحمية فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته، فإن رأى من لا طاقة له بممانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن عنه الحالتيان من الخشونة والليان لم يبق بعده إلا فداء الشيء بمثله، إما مال أو غيره وإن لم تغن عنه هذه الثلاثة تعلل بما يرجوه من نصر الأخلاء والأخوان فأخبر الله سبحانه أنه لا يغني شيء من هذه الأمور عن المجرمين في الآخرة. بقي على هذا الترتيب سؤالان:

السؤال الأول: الفائدة من قوله: ﴿لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ البقرة: ٤٨ هي الفائدة من قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فما المقصود من هذا التكرار؟ والجواب: المراد من قوله: ﴿لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أنه لا يتحمل عنه غيره ما يلزمه من الجزاء، وأما النصرة فهي أن يحاول تخليصه عن حكم المعاقب وسنذكر فرقاً آخر إن شاء الله تعالى.

السؤال الثاني: أن الله تعالى قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية وذكر هذه الآية في هذه السورة بعد العشرين والمائة وقدم قبول الفدية على ذكر الشفاعة فما الحكمة فيه؟ الجواب: أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء

الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين، أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ فالشفاعة أن يستوهب أحد لأحد شيئاً ويطلب له حاجة وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة كان فرداً فصار الشفيع له شفعاً أي صاراً زوجاً. واعلم أن الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ راجع إلى النفس الثانية العاصية وهي التي لا يؤخذ منها عدل، ومعنى لا يقبل منها شفاعة إنها إن جاءت بشفاعة شفيع لا يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها كما لا تجزي عنها شيئاً. أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية، وأصل الكلمة من معادلة الشيء تقول: ما أعدل بفلان أحداً، أي لا أرى له نظيراً. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ يَعْدُلُونَ﴾ (١) الأنعام: ١ ونظيره هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) المائدة: ٣٦ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ آل عمران: ٩١، وقال: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَأُؤْخَذَ مِنْهَا﴾ الأنعام: ٧٠ .

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فاعلم أن التناصر إنما يكون في الدنيا بالمخالطة والقرابة وقد أخبر الله تعالى أنه ليس يومئذ خلة ولا شفاعة وأنه لا أنساب بينهم، وإنما المرء يفر من أخيه وأمه وأبيه وقرابته، قال القفال: والنصر يراد به المعونة كقوله: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقوله تعالى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يحتمل هذه الوجوه فإنهم يوم القيامة لا يغاثون، ويحتمل أنهم إذا عذبوا لم يجدوا من ينتقم لهم من الله، وفي الجملة كأن النصر هو دفع الشدائد، فأخبر الله تعالى أنه لا دافع هناك من عذابه، بقي في الآية مسألتان: المسألة الأولى: أن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة،

فإذا كان لا يأمن كل ساعة من التقصير في العبادة، ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال، والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة لكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم.

المسألة الثانية: أجمعت الأمة على أن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) شفاعته في الآخرة وحمل على ذلك قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩ وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الضحى: ٥ ثم اختلفوا بعد هذا في أن شفاعته (عليه السلام) لمن تكون أ تكون للمؤمنين المستحقين للثواب، أم تكون لأهل الكبائر المستحقين للعقاب؟ فذهبت المعتزلة على أنها للمستحقين للثواب وتأثير الشفاعة في أن تحصل زيادة من المنافع على قدر ما استحقوه، وقال أصحابنا: تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب، إما بأن يشفع لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار وإن دخلوا النار فيشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة واتفقوا على أنها ليست للكفار، واستدلوا بالمعتزلة على إنكار الشفاعة لأهل الكبائر.

وأما الأحاديث فهي دالة على أن محمد (صلى الله عليه وسلم) لا يشفع لبعض الناس ولا يشفع في بعض مواطن القيامة، وذلك لا يدل على أنه لا يشفع لأحد ألبتة من أصحاب الكبائر، ولا أنه يمتنع من الشفاعة في جميع المواطن. والذي نحققه أنه تعالى بين أن أحداً من الشافعين لا يشفع إلا بإذن الله، فلعل الرسول لم يكن مأذوناً في بعض المواضع وبعض الأوقات، فلا يشفع في ذلك المكان ولا في ذلك الزمان، ثم يصير مأذوناً في موضع آخر وفي وقت آخر في الشفاعة فيشفع هناك والله أعلم.

*الطباطبائي:

﴿يَبْنِي إِسْرَاءَ يَلْ أَدْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا

لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٧﴾

البقرة: ٤٧-٤٨

قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾.

الملك والسلطان الدنيوي بأنواعه وأقسامه وبجميع شؤونه، وقواه المقننة الحاكمة والمجرية مبتنية على حوائج الحياة، وغايتها رفع الحاجة حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانية والمكانية، فربما بدل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلي يضبط الحكم ويجري ذلك في باب المجازاة أيضاً فإن الجرم والجنائية عندهم يستتبع العقاب، وربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعي منه ذلك كأن يلح المحكوم الذي يرجى عقابه على القاضي ويسترحمه أو يرتشيه فينحرف في قضائه فيجزي أي يقضي فيه بخلاف الحق، أو يبعث المجرم شفيعاً يتوسط بينه وبين الحاكم أو مجري الحكم أو يعطي عدلاً وبدلاً إذا كانت حاجة الحاكم المريد للعقاب إليه أزيد وأكثر من الحاجة إلى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعة العقاب ونحو ذلك.

تلك سنة جارية وعادة دائمة بينهم، وكانت الملل القديمة من الوثنيين وغيرهم تعتقد أن الحياة الآخرة نوع حياة دنيوية يطرد فيها قانون الأسباب ويحكم فيها ناموس التأثير، والتأثر المادي الطبيعي، فيقدمون إلى آلهتهم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد في حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفدون بشيء عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى إنهم كانوا يدفعون مع الأموات أنواع الزخرف والزينة، ليكون معهم ما يتمتعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، وربما ألحدوا معه من الجواري من يستأنس بها، ومن الأبطال من يستنصر به الميت، وتوجد اليوم في متاحف بين الآثار الأرضية عتائق كثيرة من هذا القبيل، ويوجد عقائد متنوعة شبيهة بتلك العقائد بين الملل الإسلامية على اختلاف

ألسنتهم وألوانهم، بقيت بينهم بالتوارث، ربما تلونت لوناً بعد لون، جيلاً بعد جيل، وقد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية، والأقاويل الكاذبة، فقد قال عز من قائل: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩] ، وقال: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، وقال: ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۗ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] ، إلى غير ذلك من الآيات التي بين فيها: أن الموطن خال عن الأسباب الدنيوية، وبمعزل عن الارتباطات الطبيعية، وهذا أصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل والأوهام على طريق الإجمال، ثم فصل القول في نفي واحد واحد منها وإبطاله فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] ، وقال: ﴿يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ، وقال: ﴿يَوْمٌ لَا يَغْنَىٰ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١] ، وقال: ﴿يَوْمٌ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣] ، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ (١٥) ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ﴾ (١٦) [الصافات: ٢٥-٢٦] ، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] ، وقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] ، وقال: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفْعِينَ﴾ (١٠٠) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة النافية لوقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والأسباب يوم القيامة هذا.

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفي الشفاعة من أصلها، بل يشبثها بعض الإثبات، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤] ، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٢٥]

٤٤، وقال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ ﴿يونس: ٣﴾ وقال تعالى:
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَسْئِفُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى
وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الأنبياء: ٢٦ - ٢٨ ، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
الْشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿الزخرف: ٨٦﴾ وقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا
مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿مريم: ٨٧﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ
لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ علمًا ﴿طه: ١٠٩ -
١١٠﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ: ٢٣ ، وقال تعالى:
﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفْعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَرْضَى ﴿النجم: ٢٦﴾ فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله
عز اسمها كالأيات الثلاثة الأولى وبين ما يعممها لغيره تعالى بإذنه وارتضاءه
ونحو ذلك، وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب، غير أن بعضها تثبتتها
بنحو الأصالة لله وحده من غير شريك، وبعضها تثبتتها لغيره بإذنه وارتضاءه،
وقد عرفت أن هناك آيات تنفيها فتكون النسبة بين هذه الآيات كالنسبة بين
الآيات النافية لعلم الغيب عن غيره، وإثباته له تعالى بالاختصاص ولغيره
بارتضاءه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ ﴿النمل: ٦٥﴾ وقال
تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿الأنعام: ٥٩﴾ وقال تعالى: ﴿عَلِمُ
الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿البن: ٢٦ - ٢٧﴾ وكذلك الآيات الناطقة في التوفي والخلق والرزق
والتأثير والحكم والملك وغير ذلك فإنها شائعة في أسلوب القرآن، حيث ينفي
كل كمال عن غيره تعالى، ثم يثبت له لنفسه، ثم يثبت لغيره بإذنه ومشيئته،
فتفيد أن الموجودات غيره تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها

واستقلالها، وإنما تملكها بتمليك الله لها إياها، حتى أن القرآن تثبت نوعاً من المشيئة في ما حكم فيه وقضى عليه بقضاء حتم كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ سَقَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴿١٠٨﴾ هود: ١٠٦-١٠٨، فقد علق الخلود بالمشيئة وخاصة في خلود الجنة مع حكمه بأن العطاء غير مجذوذ، إشعاراً بأن قضاءه تعالى بالخلود لا يخرج الأمر من يده ولا يبطل سلطانه وملكه عز سلطانه كما يدل عليه قوله: ﴿رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هود: ١٠٧، وبالجملة لا إعطاء هناك يخرج الأمر من يده ويوجب له الفقر، ولا منع يضطره إلى حفظ ما منعه وإبطال سلطانه تعالى.

و من هنا يظهر أن الآيات النافية للشفاعة إن كانت ناظرة إلى يوم القيامة فإنما تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الاستقلال في الملك، والآيات المثبتة تثبتها لله سبحانه بنحو الأصالة، ولغيره تعالى بإذنه وتمليكه، فالشفاعة ثابتة لغيره تعالى بإذنه فلننظر ما ذا يفيد كلامه في معنى الشفاعة ومتعلقها؟ وفيمن تجري؟ وممن تصح؟ ومتى تتحقق؟ وما نسبتها إلى العفو والمغفرة منه تعالى؟ ونحو ذلك في أمور.

١ - ما هي الشفاعة؟

الشفاعة على ما نعرف من معناها إجمالاً بالقريحة المكتسبة من الاجتماع والتعاون (وهي من الشفع مقابل الوتر كأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجاً بعد ما كان فرداً فيقوى على نيل ما يريده، لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها) من الأمور التي نستعملها لإنجاح المقاصد، ونستعين بها على حوائج الحياة، وجل الموارد التي نستعملها فيها إما مورد يقصد فيها جلب المنفعة والخير، وإما

مورد يطلب فيها دفع المضرة والشر، لكن لا كل نفع ضرر، فإننا لا نستشفع فيما يتضمنه الأسباب الطبيعية والحوادث الكونية من الخير والشر، والنفع والضرر، كالجوع، والعطش، والحر، والبرد، والصحة، والمرض، بل نتسبب فيها بالأسباب الطبيعية، ونتوسل إليها بوسائلها المناسبة لها كالأكل، والشرب، واللبس والاكتنان والمداواة، وإنما نستشفع في الخيرات والشرور والمنافع والمضار التي تستدعيها أو تستتبعها أوضاع القوانين والأحكام التي وضعتها واعتبرتها وقررتها وأجرتها حكومة الاجتماع بنحو الخصوص أو العموم، ففي دائرة المولوية والعبودية، وعند كل حاكم ومحكوم، وأحكام من الأمر والنهي إذا عمل بها وامتلأها المكلف بها استتبع ذلك تبعة الثواب من مدح أو نفع، من جاه أو مال، وإذا خالفها وتمرد منها استتبع ذلك تبعة العقاب من ذم أو ضرر مادي، أو معنوي، فإذا أمر المولى أو نهى عبده، أو كل من هو تحت سيادته وحكومته بأمر أو نهى مثلاً فامتثله كان له بذلك أجر كريم، وإن خالف كان له عقاب أو عذاب فهناك نوعان من الوضع والاعتبار، وضع الحكم ووضع تبعة الحكم، يتعين به تبعة الموافقة والمخالفة.

وعلى هذا الأصل تدور جميع الحكومات العامة بين الملل والخاصة بين كل إنسان ومن دونه.

فإذا أراد الإنسان أن ينال كمالاً وخيراً مادياً أو معنوياً وليس عنده ما يستوجب ذلك بحسب ما يعينه الاجتماع، ويعرف به لياقته، أو أراد أن يدفع عن نفسه شراً متوجهاً إليه من عقاب المخالفة وليس عنده ما يدفعه، أعني الامتثال والخروج عن عهدة التكليف، وبعبارة واضحة إذا أراد نيل ثواب من غير تهيئة أسبابه، أو التخلص من عقاب من غير إتيان التكليف المتوجه إليه فذلك مورد الشفاعة، وعنده تؤثر لكن لا مطلقاً فإن من لا لياقة له بالنسبة إلى التلبس بكمال، أو لا رابطة له تربطها إلى المشفوع عنده أصلاً، كالعامي الأمي الذي يريد تقلد مقام علمي، أو الجاحد الطاغي الذي لا يخضع لسيده أصلاً

لا تنفع عنده الشفاعة، فإنما الشفاعة متممة للسبب لا مستقلة في التأثير. ثم إن تأثير الشفيع عند الحاكم المشفوع عنده لا يكون تأثيراً جزافياً من غير سبب يوجب ذلك بل لا بد أن يوسط أمراً يؤثر في الحاكم، ويوجب نيل الثواب، أو التخلص من العقاب، فالشفيع لا يطلب من المولى مثلاً أن يبطل مولوية نفسه وعبودية عبده فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يرفع اليد عن حكمه وتكليفه المجعول، أو ينسخه عموماً أو في خصوص الواقعة فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يبطل قانون المجازاة عموماً أو خصوصاً فلا يعاقب لذلك رأساً، أو في خصوص الواقعة، فلا نفوذ ولا تأثير للشفيع في مولوية وعبودية، ولا في حكم ولا في جزاء حكم، بل الشفيع بعد ما يسلم جميع الجهات الثلاث المذكورة إنما يتمسك: إما بصفات في المولى الحاكم توجب العفو والصفح كسؤدده، وكرمه، وسخائه، وشرافته محتده، وإما بصفات في العبد تستدعي الرأفة والحنان وتثير عوامل المغفرة كمذلتة ومسكنته وحقارته وسوء حاله، وإما بصفات في نفسه أعني نفس الشفيع من قربه إلى المولى وكرامته وعلو منزلته عنده فيقول: ما أسألك إبطال مولويتك وعبوديته، ولا أن تبطل حكمك ولا أن تبطل الجزاء، بل أسألك الصفح عنه بأن لك سؤدداً ورأفة وكرماً لا تنتفع بعقابه ولا يضرك الصفح عن ذنبه أو بأنه جاهل حقير مسكين لا يعتني مثلك بشأنه ولا يهتم بأمره أو بأن لي عندك من المنزل والكرامة ما يوجب إسعاف حاجتي في تخليصه والعفو عنه.

ومن هنا يظهر للمتأمل أن الشفيع إنما يحكم بعض العوامل المربوطة بال مورد المؤثرة في رفع العقاب مثلاً من صفات المشفوع عنده أو نحوها على العامل الآخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتب العقاب على مخالفته، ونعني بالحكومة أن يخرج مورد الحكم عن كونه مورداً بإدخاله في مورد حكم آخر، فلا يشمل الحكم الأول لعدم كونه من مصاديقه لا أن يشمل فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادة كإبطال الأسباب المتضادة في الطبيعة بعضها حكم

بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير، فحقيقة الشفاعة التوسط في إيصال نفع أو دفع شر بنحو الحكومة دون المضادة.

ومن هنا يظهر أيضاً أن الشفاعة من مصاديق السببية فهي توسط السبب المتوسط القريب بين السبب الأول البعيد ومسببه، هذا ما يتحصل من تحليل معنى الشفاعة التي عندنا.

ثم إن الله سبحانه يمكن أن يقع مورد النظر في السببية من جهتين: أحدهما: أنه يبتدئ منه التأثير، وينتهي إليه السببية، فهو المالك للخلق والإيجاد على الإطلاق، وجميع العلل والأسباب أمور متخللة متوسطة بينه وبين غيره لنشر رحمته التي لا تنفذ ونعمته التي لا تحصى إلى خلقه وصنعه. والثانية: أنه تعالى تفضل علينا بالدنو في حين علوه فشرع الدين ووضع فيه أحكاماً من أوامر ونواهي وغير ذلك وتبعات من الثواب والعقاب في الدار الآخرة وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين فبلغوه أحسن تبليغ وقامت بذلك الحجة وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته.

أما من الجهة الأولى: وهي النظر إليه من جهة التكوين فانطبق معنى الشفاعة على شأن الأسباب والعلل الوجودية المتوسطة واضح لا يخفى، فإنها تستفيد من صفاته العليا من الرحمة والخلق والإحياء والرزق وغير ذلك إيصال أنواع النعم والفضل إلى كل مفتقر محتاج من خلقه، وكلامه تعالى أيضاً يحتمل ذلك كقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢٥٥، وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يونس: ٣، فإن الشفاعة في مورد التكوين ليست إلا توسط العلل والأسباب بينه وبين مسبباتها في تدبير أمرها وتنظيم وجودها وبقائها فهذه شفاعة تكوينية.

وأما من الجهة الثانية: وهي النظر إليه من جهة التشريع فالذي ينبغي أن يقال: أن مفهوم الشفاعة على ما سبق من التحليل يصح صدقه في مورده

ولا محذور في ذلك وعليه ينطبق قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه: ١٠٩، وقوله: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ: ٢٣، وقوله: ﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ النجم: ٢٦، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨، وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف: ٨٦، فإن الآيات كما ترى تثبت الشفاعة بمعنى الشافعية لعدة من عبادته من الملائكة والناس من بعد الإذن والارتضاء، فهو تمليك ولله الملك وله الأمر فلهم أن يتمسكوا برحمته وعفوه ومغفرته وما أشبه ذلك من صفاته العليا لتشمل عبداً من عبادته ساءت حاله بالمعصية، وشملت به بلية العقوبة، فيخرج عن كونه مصداقاً للحكم الشامل، والجرم العامل على ما عرفت أن تأثير الشفاعة بنحو الحكومة دون التضاد وهو القائل عز من قائل: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ الفرقان: ٧٠، فله تعالى أن يبدل عملاً من عمل كما أن له أن يجعل الموجود من العمل معدوماً، قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ الفرقان: ٢٣، وقال تعالى: ﴿فَأَخِطْ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد: ٩، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجَتَبَوُا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ النساء: ٣١، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْرِفُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء: ٤٨، والآية في غير مورد الإيمان والتوبة قطعاً فإن الإيمان والتوبة يغفر بهما الشرك أيضاً كسائر الذنوب وله تكثير القليل من العمل، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنٍ﴾ القصص: ٥٤، وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الأنعام: ١٦٠، وله سبحانه أن يجعل المعدوم من العمل موجوداً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ الطور: ٢١، وهذا هو اللحق والإلحاق وبالجملة فله تعالى أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

نعم إنما يفعل لمصلحة مقتضية، وعلّة متوسطة ولتكن من جملتها شفاعة الشافعيين من أنبيائه وأوليائه والمقربين من عبادته من غير جزاف

ولا ظلم.

ومن هنا ظهر أن معنى الشفاعة بمعنى الشافعية، صادق بحسب الحقيقة في حقه تعالى فإن كلاً من صفاته متوسطة بينه وبين خلقه في إفاضة الجود وبذل الوجود فهو الشفيع في الحقيقة على الإطلاق.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ الزمر: ٤٤، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ السجدة: ٤، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الأنعام: ٥١. وغيره تعالى لو كان شفيعاً فإنما هو بإذنه وتمليكه.

فقد ثبت بما مرّ صحة تحقق الشفاعة عنده تعالى في الجملة فيما لا يوجب محذوراً لا يليق بساحة كبريائه تعالى. من تقع منه الشفاعة؟

قد عرفت أن الشفاعة منها تكوينية، ومنها تشريعية، فأما الشفاعة التكوينية فجملة الأسباب الكونية شفعاء عند الله بما هم وسائط بينه وبين الأشياء.

وأما الشفاعة التشريعية، وهي الواقعة في عالم التكليف والمجازات، فمنها ما يستدعي في الدنيا مغفرة من الله سبحانه أو قرباً وزلفى، فهو شفيع متوسط بينه وبين عبده.

ومنه التوبة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿ الزمر: ٥٣ - ٥٤، ويعمّ شموله لجميع المعاصي حتى الشرك.

ومنه الإيمان قال تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ الحديد: ٢٨، إلى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأحزاب: ٧١ - آل عمران: ٣١.

ومنه كل عمل صالح.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة: ٩، وقال تعالى: ﴿يَتَّيْنُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ

الْوَسِيلَةَ ﴿الْمَائِدَةُ: ٣٥﴾، والآيات فيه كثيرة، ومنه القرآن لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿الْمَائِدَةُ: ١٦﴾.

ومنه كل ما له ارتباط بعمل صالح، والمساجد والأمكنة المباركة والأيام الشريفة، ومنه الأنبياء والرسل باستغفارهم لأممهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿النِّسَاء: ٦٤﴾.

ومنه الملائكة في استغفارهم للمؤمنين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿غَافِر: ٧﴾، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الشُّورَى: ٥٥﴾، ومنه المؤمنون باستغفارهم لأنفسهم وإخوانهم المؤمنين.

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنتَ مَوْلَانَا﴾ ﴿البَقَرَةُ: ٢٨٦﴾.

ومنها الشفيع يوم القيامة بالمعنى الذي عرفت فمنهم الأنبياء. قال تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿الْأَنْبِيَاء: ٣٦﴾ إلى أن قال:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ﴿الْأَنْبِيَاء: ٢٨﴾، فإن منهم عيسى بن مريم وهو نبي،

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزُّحُرَف: ٨٦﴾، والآيتان تدلان على جواز الشفاعة من الملائكة أيضاً لأنهم

قالوا إنهم بنات الله سبحانه. ومنهم الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَن

يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَرَضِيَ﴾ ﴿النَّجْم: ٢٦﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن

أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ ۚ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ﴿طه: ١٠٩ - ١١٠﴾، ومنهم

الشهداء لدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن

شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الزُّحُرَف: ٨٦﴾، على تملكهم للشفاعة لشهادتهم بالحق،

فكل شهيد فهو شفيع يملك الشهادة غير أن هذه الشهادة كما مر في سورة

﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾، فإن السلوك هو الإدخال، لكن لا كل إدخال بل إدخال على سبيل النضد والجمع والنظم ففيه معنى الاستقرار وكذا قوله: فما تنفعهم، فإن ما لنفي الحال، فافهم ذلك.

وأما نشأة البرزخ وما يدل على حضور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) عند الموت وعند مساءلة القبر وإعانتهم إياه على الشدائد كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَلِإِن مِّنْ أَهْلٍ لَّكُنِبِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ النساء: ١٥٩، فليس من الشفاعة عند الله في شيء وإنما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم بإذن الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَنَهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦)، إلى أن قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَنَهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) أَهْلُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ الأعراف: ٤٦-٤٩، ومن هذا القبيل من وجه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ الإسراء: ٧١، فوساطة الإمام في الدعوة، وإيتاء الكتاب من قبيل الحكومة الموهوبة فافهم.

فتحصل أن المتحصل من أمر الشفاعة وقوعها في آخر موقف من مواقف يوم القيامة باستيهاب المغفرة بالمنع عن دخول النار، أو إخراج بعض من كان داخلاً فيها، باتساع الرحمة أو ظهور الكرامة.

في أمالي الصدوق: عن الحسين بن خالد عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل، قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا (عليه السلام) يا بن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ الأنبياء: ٢٨ قال (عليه السلام): لا يشفعون إلا لمن

ارتضى الله دينه.

أقول: قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): إنما شفاعتي، هذا المعنى رواه الفريقان بطرق متعددة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد مر استفادة معناه من الآيات.

وفي تفسير العياشي: عن سماعة بن مهران عن أبي إبراهيم (عليه السلام): في قول الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩ ، قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً ويؤمر الشمس، فيركب على رؤوس العباد، ويلجمهم العرق، وتؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئاً فيأتون آدم فيستشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى، ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى فيقول: عليكم بمحمد خاتم البشر فيقول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): أنا لها فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق فيقال له: من هذا؟ والله أعلم فيقول: محمد، فيقال: افتحوا له فإذا فتح الباب استقبل ربه فخر ساجداً فلا رفع رأسه حتى يقال له: تكلم وسل تعط واشفع تشفع فيرفع رأسه ويستقبل ربه فيخر ساجداً فيقال له مثلها فيرفع رأسه حتى إنه ليشفع من قد أحرق بالنار فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو قول الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩ .

أقول: وهذا المعنى مستفيض مروي بالاختصار والتفصيل بطرق متعددة من العامة والخاصة، وفيها دلالة على كون المقام المحمود في الآية هو مقام الشفاعة، ولا ينافي ذلك كون غيره (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأنبياء، وغيرهم جائز الشفاعة لإمكان كون شفاعتهم فرعاً لشفاعته فافتتاحها بيده (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي تفسير العياشي، أيضاً: عن أحدهما (عليهما السلام): في قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩ ، قال: هي الشفاعة.

وفي تفسير العياشي، أيضاً: عن عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبد الله (عليه السلام) عن المؤمن هل له شفاعاة؟ قال: نعم فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعاة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذ؟ قال: نعم إن للمؤمنين خطايا وذنوباً وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعاة محمد يومئذ. قال: وسأله رجل عن قول رسول الله: أنا سيد ولد آدم ولا فخر. قال: نعم. قال: يأخذ حلقة باب الجنة فيفتحها فيختر ساجداً فيقول الله: ارفع رأسك اشفع تشفع اطلب تعط فيرفع رأسه ثم يختر ساجداً فيقول الله: ارفع رأسك اشفع تشفع واطلب تعط ثم يرفع رأسه فيشفع فيشفع ويطلب فيعطى.

وفي تفسير الفرات: عن محمد بن القاسم بن عبيد معنعناً عن بشر بن شريح البصري قال: قلت لمحمد بن علي (عليهما السلام)، أية آية في كتاب الله أرجى؟ قال: فما يقول فيها قومك؟

قلت: يقولون: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الزمر: ٥٣ . قال: لكننا أهل بيت لا نقول ذلك. قال: قلت: فأى شيء تقولون فيها؟ قال: نقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْحَمَ﴾ الضحى: ٥ الشفاعاة واللله الشفاعاة واللله الشفاعاة.

أقول: أما كون قوله تعالى: ﴿أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩ الآية، مقام الشفاعاة فربما ساعد عليه لفظ الآية أيضاً مضافاً إلى ما استفاد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه مقام الشفاعاة فإن قوله تعالى: ﴿أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يدل على أنه مقام سيناله يوم القيامة.

وقوله محموداً مطلق، فهو حمد غير مقيد يدل على وقوعه من جميع الناس من الأولين والآخرين، والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري ففيه دلالة على وقوع فعل منه (صلى الله عليه وآله وسلم) ينتفع به ويستفيد منه الكل فيحمده عليه، ولذلك قال (عليه السلام) في رواية عبيد بن زرارة السابقة: وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعاة محمد يومئذ الحديث. وسيجيء

بيان هذا المعنى بوجه آخر وجيه.

وأما كون قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الضحى: ٥، أرجى آية في كتاب الله دون قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ الزمر: ٥٣ الآية، فإن النهي عن القنوط وإن تكرر ذكره في القرآن الشريف إلا أن قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) حكاية عن إبراهيم (عليه السلام): قال: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ الزمر: ٥٣، وقوله تعالى حكاية عن يعقوب (عليه السلام): ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف: ٨٧، ناظرتان إلى اليأس والقنوط من الرحمة التكوينية بشهادة المورد.

و أما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر: ٥٣ - ٥٤، إلى آخر الآيات فهو وإن كان نهياً عن القنوط من الرحمة التشريعية بقرينة قوله تعالى ﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الظاهر في كون القنوط في الآية قنوطاً من جهة المعصية، وقد عمم سبحانه المغفرة للذنوب جميعاً من غير استثناء، ولكنه تعالى ذيله بالأمر بالتوبة والإسلام والعمل بالإتباع فدلّت الآية على أن العبد المسرف على نفسه لا ينبغي له أن يقنط من روح الله ما دام يمكنه اختبار التوبة والإسلام والعمل الصالح.

وبالجملة فهذه رحمة مقيدة أمر الله تعالى عباده بالتعلق بها، وليس رجاء الرحمة المقيدة كرجاء الرحمة العامة والإعطاء، والإرضاء المطلقين الذين وعدهما الله لرسوله الذي جعله رحمة للعالمين.

ذلك الوعد يطيب نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الضحى: ٥ الآية.

توضيح ذلك: أن الآية في مقام الامتنان وفيها وعد يختص به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يعد الله سبحانه بمثله أحداً من خلقه قط، ولم يقيد الإعطاء بشيء فهو إعطاء مطلق وقد وعد الله ما يشابه ذلك فريقاً

من عباده في الجنة فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الشورى: ٢٢ ، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق: ٣٥ ، فأفاد أن لهم هناك ما هو فوق مشيئتهم، والمشيئة تتعلق بكل ما يخطر ببال الإنسان من السعادة والخير، فهناك ما لا يخطر على قلب بشر كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ السجدة: ١٧ ، فإذا كان هذا قدر ما أعطاه الله على عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو أمر فوق القدر كما عرفت ذلك فما يعطيه لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مقام الامتنان أوسع من ذلك وأعظم، فافهم. فهذا شأن إعطائه تعالى، وأما شأن رضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن المعلوم أن هذا الرضا ليس هو الرضا بما قسم الله، الذي هو زميل لأمر الله.

فإن الله هو المالك الغني على الإطلاق وليس للعبد إلا الفقر والحاجة فينبغي أن يرضى بقليل ما يعطيه ربه وكثيره وينبغي أن يرضى بما قضاه الله في حقه، سره ذلك أو ساءه، فإذا كان هذا هكذا فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أعلم وأعمل، لا يريد إلا ما يريده الله في حقه، لكن هذا الرضا حيث وضع في مقابل الإعطاء يفيد معنى آخر نظير إغناء الفقير بما يشكو فقده، وإرضاء الجائع بإشباعه فهو الإرضاء بالإعطاء من غير تحديد، وهذا أيضاً مما وعد الله ما يشابهه لفريق من عباده.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ البينة: ٧ - ٨ ، وهذا أيضاً لموقع الامتنان والاختصاص يجب أن يكون أمراً فوق ما للمؤمنين وأوسع من ذلك، وقد قال تعالى: في حق رسوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨ ، فصدق رأفته وكيف يرضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويطيب نفسه أن يتنعم بنعيم الجنة ويرتاض في رياضه وفريق من المؤمنين متغلغلون في دركات السعير، مسجونون

تحت أطباق النار وهم معترفون لله بالربوبية، ولرسوله بالرسالة، ولما جاء به بالصدق، وإنما غلبت عليهم الجهالة، ولعب بهم الشيطان، فاقترفوا معاصي من غير عناد واستكبار. والواحد منّا إذا راجع ما أسلفه من عمره ونظر إلى ما قصّر به في الاستكمال والارتقاء يلوم نفسه بالتفريط في سعيه وطلبه ثم يلتفت إلى جهالة الشباب ونقص التجارب فربما خمدت نار غضبه وانكسرت سورة ملامته لرحمة ناقصة أودعها الله فطرته، فما ظنك برحمة رب العالمين في موقف ليس فيه إلا جهالة إنسان ضعيف وكرامة النبي الرؤوف الرحيم ورحمة أرحم الراحمين.

وقد رأى ما رأى من وبال أمره من لدن نشبت عليه أظفار المنية إلى آخر مواقف يوم القيامة.

وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سبأ: ٢٣ الآية)، عن أبي العباس المكبر قال: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين يقال له: أبو أيمن فقال: يا أبا جعفر تغرون الناس وتقولون: شفاعة محمد، شفاعة محمد فغضب أبو جعفر حتى تربّد وجهه، ثم قال: ويحك يا أبا أيمن أغرك أن عفّ بطنك وفرجك؟ أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد، ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار؟ قال: ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم القيامة، ثم قال أبو جعفر: إن لرسول الله الشفاعة في أمته، ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم، ثم قال: وإن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإن المؤمن ليشفع لخادمه ويقول: يا رب حق خدمتي كان يقيني الحر والبرد.

أقول: قوله (عليه السلام): ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ظاهرة أن هذه الشفاعة العامة غير التي ذكرها بقوله: ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار، وقد مرّ نظير

هذا المعنى في رواية العياشي عن عبيد بن زرارة عن الصادق (عليه السلام). وفي هذا المعنى روايات أخر روتها العامة والخاصة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] ، حيث يفيد أن الملاك في الشفاعة هو الشهادة، فالشهداء هم الشفعاء المالكون للشفاعة، وسيأتي إن شاء الله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ، أن الأنبياء شهداء وأن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) شهيد عليهم، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) شهيد الشهداء فهو شفيع الشفعاء ولولا شهادة الشهداء لما قام للقيامة أساس.

وفي تفسير القمي، أيضاً: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] . قال (عليه السلام): لا يشفع أحد من أنبياء الله ورسله حتى يأذن الله له إلا رسول الله فإن الله أذن له في الشفاعة قبل يوم القيامة، والشفاعة له وللأئمة من ولده ثم من بعد ذلك للأنبياء.

وفي الخصال: عن علي (عليه السلام) قال قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء.

أقول: الظاهر أن المراد بالشهداء، شهداء معركة القتال كما هو المعروف في لسان الأئمة في الأخبار لا شهداء الأعمال كما هو مصطلح القرآن. و في الخصال، في حديث الأربعمئة: قال (عليه السلام): لنا شفاعة ولأهل مودتنا شفاعة.

أقول: وهناك روايات كثيرة في شفاعة سيدة النساء فاطمة (عليها السلام) وشفاعة ذريتها غير الأئمة وشفاعة المؤمنين حتى السقط منهم.

ففي الحديث المعروف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط يقوم محببناً على

باب الجنة فيقال له: أدخل فيقول: لا حتى يدخل أبواي؛ الحديث.

وفي الخصال: عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) قال: إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبك دعوتك، وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من عاداني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت.

وفي الكافي: عن حفص المؤذن عن أبي عبد الله (عليه السلام) في رسالته إلى أصحابه قال (عليه السلام): واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك من سره أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه.

وفي تفسير الفرات: بإسناده عن الصادق (عليه السلام) قال: قال جابر لأبي جعفر (عليه السلام): جعلت فداك يا بن رسول الله حدثني بحديث في جدتك فاطمة وساق الحديث يذكر فيه شفاعة فاطمة يوم القيامة إلى أن قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): فوالله لا يبقى في الناس إلا شاك أو كافر أو منافق، فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله تعالى فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين، قال أبو جعفر (عليه السلام): هيهات هيهات منعوا ما طلبوا ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. أقول: تمسكه (عليه السلام) بقوله تعالى: فما لنا من شافعين يدل على استشعار دلالة الآيات على وقوع الشفاعة وقد تمسك بها النافون للشفاعة على نفيها وقد اتضح مما قدمناه في قوله تعالى: فما تنفعهم شفاعة الشافعين

وجه دلالتها عليها في الجملة، فلو كان المراد مجرد النفي لكان حق الكلام أن يقال: فما لنا من شفيع ولا صديق حميم، فالإتيان في حيز النفي بصيغة الجمع يدل على وقوع شفاعاة من جماعة وعدم نفعها في حقهم، مضافاً إلى أن قوله تعالى: فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين بعد قوله: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم المسوق للتحسر تمنّ واقع في حيز التحسر ومن المعلوم أن التمني في حيز التحسر إنما يكون بما يتضمن ما فقده ويشتمل على ما تحسر عليه فيكون معنى قولهم: فلو أن لنا كرة، معناه يا ليتنا نردّ فنكون من المؤمنين حتى ننال الشفاعاة من الشافعين كما نالها المؤمنون، فالآية من الآيات الدالة على وقوع الشفاعاة.

وفي التوحيد: عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل، قيل: يا بن رسول الله كيف تكون الشفاعاة لأهل الكبائر، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨، ومن ارتكب الكبيرة لا يكون مرتضى؟ فقال (عليه السلام): ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلاّ ساءه ذلك وندم عليه، وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): كفى بالندم توبة، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) من سرته حسنة وساءته سيئة فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعاة وكان ظالماً والله تعالى ذكره يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ غافر: ١٨، فقليل له: يا بن رسول الله وكيف لا يكون مؤمناً من لا يندم على ذنب يرتكبه فقال: ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أن سيعاقب عليه إلاّ ندم على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً والمصر لا يغفر له، لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وأما قول الله عزّ وجلّ: ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى فإنهم لا يشفعون

إلا لمن ارتضى الله دينه، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات، فمن ارتضى دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة.

أقول: قوله (عليه السلام) وكان ظالماً، فيه تعريف الظالم يوم القيامة وإشارة إلى ما عرفه به القرآن حيث يقول: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأعراف: ٤٤ - ٤٥) ، وهو الذي لا يعتقد بيوم المجازاة فلا يتأسف على فوات أوامر الله تعالى ولا يسوؤه اقتحام محارمه إما بجحد جميع المعارف الحقة والتعاليم الدينية وإما بالاستهانة لأمرها وعدم الاعتناء بالجزاء والدين يوم الجزاء والدين فيكون قوله به استهزاء بأمره وتكذيباً له، وقوله (عليه السلام): فتكون تائباً مستحقاً للشفاعة، أي راجعاً إلى الله ذا دين مرضي مستحقاً للشفاعة، وأما التوبة المصطلحة فهي بنفسها شفيعة منجية، وقوله (عليه السلام): وقد قال النبي لا كبيرة مع الاستغفار، (إلخ) تمسكه (عليه السلام) به من جهة أن الإصرار وهو عدم الانقباض بالذنوب والندم عليه يخرج الذنب عن شأنه الذي له إلى شأن آخر وهو تكذيب المعاد والظلم بآيات الله فلا يغفر لأن الذنب إنما يغفر إما بتوبة أو بشفاعة متوقفة على دين مرضي ولا توبة هناك ولا دين مرضياً.

ونظير هذا المعنى واقع في رواية العلل عن أبي إسحاق الليثي قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام): يا بن رسول الله أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل هل يزني؟ قال: اللهم لا، قلت: فيلوط قال اللهم لا، قلت فيسرق؟ قال لا، قلت: فيشرب الخمر؟ قال: لا قلت: فيأتي بكبيرة من هذه الكبائر أو فاحشة من هذه الفواحش؟ قال لا، قلت فيذنب ذنباً؟ قال: نعم وهو مؤمن مذب مسلّم، قلت: ما معنى مسلّم؟ قال: المسلّم لا يلزمه ولا يصير عليه.

الحديث.

وفي الخصال:، بأسانيد عن الرضا عن آبائه (عليهم السلام) قال قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا كان يوم القيامة تجلّى الله عزّ وجلّ لعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثم يغفر الله له لا يطلع الله له ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأ ويستتر عليه أن يقف عليه أحد، ثم يقول لسيئاته: كوني حسناً.

وعن صحيح مسلم، مرفوعاً إلى أبي ذر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ونحوا عنه كبارها فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة فيقول: إن لي ذنباً ما أراها ههنا، قال: ولقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه.

وفي الأمالي: عن الصادق (عليه السلام): إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته.

أقول: والروايات الثلاث الأخيرة من المطلقات والأخبار الدالة على وقوع شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم القيامة من طرق أئمة أهل البيت وكذا من طرق أهل السنة والجماعة بالغة حد التواتر، وهي من حيث المجموع إنما تدل على معنى واحد وهو الشفاعة على المذنبين من أهل الإيمان إما بالتخليص من دخول النار وإما بالإخراج منها بعد الدخول فيها، والمتيقن منها عدم خلود المذنبين من أهل الإيمان في النار وقد عرفت أن القرآن أيضاً لا يدل على أزيد من ذلك.

وقد عالج الطباطبائي مسألة الشفاعة من الناحية الإجتماعية بقوله :
الذي تعطيه أصول الاجتماع أن المجتمع الإنساني لا يقدر على حفظ حياته وإدامة وجوده إلاّ بقوانين موضوعة معتبرة بينهم، لها النظارة في

حاله، والحكومة في أعمال الأفراد وشؤونهم، تنشأ عن فطرة المجتمع وغريزة الأفراد المجتمعين بحسب الشرائط الموجودة، فتسير بهدايتها جميع طبقات الاجتماع كل على حسب ما يلائم شأنه ويناسب موقعه فيسير المجتمع بذلك سيراً حثيثاً ويتولد بتألف أطرافه وتفاعل متفرقاته العدل الاجتماعي، وهي موضوعة على مصالح ومنافع مادية يحتاج إليها ارتقاء الاجتماع المادي، وعلى كمالات معنوية كالأخلاق الحسنة الفاضلة التي يدعو إليها صلاح الاجتماع كالصدق في القول والوفاء بالعهد والنصح وغير ذلك، وحيث كانت القوانين والأحكام وضعية غير حقيقية احتاجت إلى تتميم تأثيرها، بوضع أحكام مقررّة أخرى في المجازاة لتكون هي الحافظة لحماها عن تعدي الأفراد المتهوسين وتساهل آخرين، ولذلك كلما قويت حكومة (أي حكومة كانت) على إجراء مقررات الجزاء لم يتوقف المجتمع في سيره ولا ضل سائره عن طريقه ومقصده، وكلما ضعفت اشتد الهرج والمرج في داخله وانحرف عن مسيره فمن التعاليم اللازمة تثبيتها في الاجتماع تلقين أمر الجزاء، وإيجاد الإيمان به في نفوس الأفراد، ومن الواجب الاحتراز من أن يدخل في نفوسهم رجاء التخلص عن حكم الجزاء، وتبعة المخالفة والعصيان، بشفاعة أو رشوة أو بشيء من الحيل والدسائس المهلكة، ولذلك نقموا على الديانة المسيحية ما وقع فيها أن المسيح فدى الناس في معاصيهم بصلبه، فالناس يتكلمون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ويكون الدين إذ ذاك هادماً للإنسانية، مؤخراً للمدنية، راجعاً بالإنسان القهقري كما قيل.

وإن الإحصاء يدل من أن المتدينين أكثر كذباً وأبعد من العدل من غيرهم وليس ذلك إلا أنهم يتكلمون بحقية دينهم، وإدخار الشفاعة في حقهم ليوم القيامة، فلا يبالون ما يعملون بخلاف غيرهم، فإنهم خلوا وغرائزهم وفطرتهم ولم يبطل حكمها بما بطل به في المتدينين فحكمت بقبح التخلف عما يخالف حكم الإنسانية والمدنية الفاضلة.

وبذلك عول جمع من الباحثين في تأويل ما ورد في خصوص الشفاعة في الإسلام وقد نطق به الكتاب وتواترت عليه السنة.

ولعمري لا الإسلام تثبت الشفاعة بالمعنى الذي فسروها به، ولا الشفاعة التي تثبتها تؤثر الأثر الذي زعموه لها، فمن الواجب أن يحصل الباحث في المعارف الدينية وتطبيق ما شرعه الإسلام على هيكل الاجتماع الصالح والمدنية الفاضلة تمام ما رامه الإسلام من الأصول والقوانين المنطبقة على الاجتماع كيفية ذلك التطبيق، ثم يحصل ما هي الشفاعة الموعودة وما هو محلها وموقعها بين المعارف التي جاء بها.

فيعلم أولاً: أن الذي يثبتته القرآن من الشفاعة هو أن المؤمنين لا يخلدون في النار يوم القيامة بشرط أن يلاقوا ربهم بالإيمان المرضي والدين الحق فهو وعد وعده القرآن مشروطاً ثم نطق بأن الإيمان من حيث بقائه على خطر عظيم من جهة الذنوب ولا سيما الكبائر ولا سيما الإدمان منها والإمرار فيها، فهو شفا جرف الهلاك الدائم، وبذلك يتحصل رجاء النجاة وخوف الهلاك، ويسلك نفس المؤمن بين الخوف والرجاء فيعبد ربه رغبة ورهبة، ويسير في حياته سيراً معتدلاً غير منحرف لا إلى خمود القنوط ولا إلى كسل الوثوق.

وثانياً: أن الإسلام قد وضع من القوانين الاجتماعية من مادياتها ومعنوياتها ما يستوعب جميع الحركات والسكنات الفردية والاجتماعية، ثم اعتبر لكل مادة من موادها ما هو المناسب له من التبعة والجزاء من دية وحد وتعزير إلى أن ينتهي إلى تحريم مزايا الاجتماع واللوم والذم والتقبيح، ثم تحفظ على ذلك بعد تحكيم حكومة أولياء الأمر، بتسليط الكل على الكل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم أحيى ذلك بنفخ روح الدعوة الدينية المضمنة بالإنذار والتبشير بالعقاب والثواب في الآخرة، وبنى أساس تربيته بتلقين معارف المبدأ والمعاد على هذا الترتيب.

فهذا ما يرومه الإسلام بتعليمه، جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

وصدقه التجارب الواقع في عهده وعهد من يليه حتى لعبت به أيدي الولاة في السلطنة الأموية ومن شايعهم في استبدادهم ولعبهم بأحكام الدين وإبطالهم الحدود والسياسات الدينية حتى آل الأمر إلى ما آل إليه اليوم وارتفعت أعلام الحرية وظهرت المدنية الغربية ولم يبق من الدين بين المسلمين إلا كصباة في إناء فهذا الضعف البين في سياسة الدين وارتجاع المسلمين القهقري هو الموجب لتنزلهم في الفضائل والفواضل وانحطاطهم في الأخلاق والآداب الشريفة وانغمارهم في الملاهي والشهوات وخوضهم في الفواحش والمنكرات، هو الذي أجرأهم على انتهاك كل حرمة واقتراف كل ما يستشعنه حتى غير المنتحل بالدين لا ما يتخيله المعترض من استناد الفساد إلى بعض المعارف الدينية التي لا غاية لها وفيها إلا سعادة الإنسان في آجله وعاجله والله المعين، والإحصاء الذي ذكروها إنما وقع على جمعية المتدينين وليس عليهم قيم ولا حافظ قوي وعلى جمعية غير المنتحلين، والتعليم والتربية الاجتماعيان قيما عليهم حافظان لصلاحهم الإجتماعي فلا يفيد في ما أراده شيئاً.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

أجمع المفسرون على تأكيد مسألة الشفاعة وشرحوها كلّ بحسب خلفيته العقائدية والفكرية باستثناء ابن كثير كما أن سيد قطب لم يتعرض لها في هذا المورد بشكل واضح وربما نتعرف إلى رأيه في الأبحاث القادمة بإذن الله.

إلا أن الطباطبائي كان المتميز بمعالجته لهذه القضية من كافة جوانبها ويليهِ الشيرازي والرازي. وعليه فإن إجماع الأمة إلى تأكيد مسألة الشفاعة كما مرّ معنا باستثناء تيار واحد شدّ عنها وعبر عنه ابن كثير. وتعتبر هذه المسألة من أمّهات المسائل الكلامية لارتباطها بمسألة التوحيد كما شرحه الطباطبائي.

